فقه السيرة النبوية

مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة

دراسات منهجيّة علميّة لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم
وما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام

تأليف
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

أهميّة السِّيرة النبويّة في فهم الإسلام

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية وفقهها ، مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية ، ولا سرد ماطرف أو جمل من القصص والأحداث ولذا فلا ينبغي أن نعتبر دراسة فقه السيرة النبوية من جملة الدراسة التاريخية ، شأنها كشأن الاطلاع على سيرة خليفة من الخلفاء أو عهد من العهود التاريخية الغابرة .

وإنما الغرض منها ؛ أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته ﷺ ، بعد أن فهمها مبادئ وقواعد وأحكاماً مجردة في الذهن .

أي إن دراسة السيرة النبوية ، ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة ، في مثلها الأعلى محمد ﷺ .

وإذا أردنا أن نجزئ هذا الغرض ونصنّف أجزاءه ، فإن من الممكن حصرها في الأهداف التفصيلية التالية :

١ ـ فهم شخصية الرسول ﷺ (النبوية) من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها ، للتأكد من أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن مجرد عبقري سمت به عبقريته بين قومه ، ولكنه قبل ذلك رسول أيّده الله بوحي من عنده وتوفيق من لدنه .

٢ ـ أن يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة ، كي يجعل منها دستوراً يتمسك به ويسير عليه ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في ناحية من نواحي الحياة فإنه واجد كل ذلك

في حياة رسول الله ﷺ على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال . ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كلها إذ قال : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ [الأحزاب ٢١/٣٣] .

٣ ـ أن يجد الإنسان في دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده ، إذ إن كثيراً من آيات القرآن إنما تفسرها وتجلّيها الأحداث التي مرت برسول الله ﷺ ومواقفه منها .

٤ ـ أن يتجمع لدى المسلم من خلال دراسة سيرته ﷺ ، أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة ، سواء ما كان منها متعلقاً بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق ، إذ لا ريب أن حياته عليه الصلاة والسلام إنما هي صورة مجسدة نيرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه .

٥ ـ أن يكون لدى المعلم والداعية الإسلامي نموذج حيّ عن طرائق التربية والتعليم ، فلقد كان محمد ﷺ معلماً ناصحاً ومربياً فاضلاً لم يأل جهداً في تلمس أجدى الطرق الصالحة إلى كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته .

وإن من أهم ما يجعل سيرته ﷺ وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها أن حياته عليه الصلاة والسلام شاملة لكل النواحي الإنسانية والاجتماعية التي توجد في الإنسان من حيث إنه فرد مستقل بذاته أو من حيث إنه عضو فعال في المجتمع .

فحياته عليه الصلاة والسلام تقدم إلينا نماذج سامية للشاب المستقيم في سلوكه ، الأمين مع قومه وأصحابه ، كما تقدم النموذج الرائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته ، ولرئيس الدولة الذي يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة ، وللزوج المثالي في حسن معاملته ، وللأب في حنو عاطفته ، مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكل من الزوجة والأولاد ، وللقائد الحربي الماهر والسياسي الصادق

الحضـاريـة والأفكار الفلسفيـة أبـدعت أخيراً هـذه الحضـارة الفـذة والتشريـع المتكامل .

ولقد أوضح القرآن الكريم هـذه الحكمـة بصريح العبـارة حينمـا قـال : ﴿ هُوَ الـذي بعثَ في الأُميّين رسولاً منهم يَتْلو عليهم آيـاتِـه ويزكّيهم ويعلّمُهم الكتـابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِن قبلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ ﴾ [الجمعة ٢/٦٢] .

فلقد اقتضت إرادة الله تعالى أن يكون رسوله أُميّاً ، وأن يكون القوم الـذين ظهر فيهم هـذا الرسـول أُميّين أيضـاً في غـالبيتهم العظمى ، حتى تكـون معجـزة النُّبـوة والشريعـة الإسـلاميـة واضحـة في الأذهـان لالبس بينهـا وبين الـدعـوات البشرية المختلفة . وهذا ينطوي ـ كما هو واضح ـ على رحمة عظيمة بالعباد .

وهنالك حكم أخرى لاتخفى على الباحث نجملها فيما يلي :

١ ـ من المعلوم أن الله عزّ وجلّ قد جعل البيت الحرام مثابة للنـاس وأمنـاً ، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة وإقامة الشعـائر الـدينيـة ، وحقق في ذلـك الوادي دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ومن لوازم هذا كله ومتماته أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهـداً للـدعوة الإسلاميـة التي هي ملـة أبينـا إبراهيم وأن تكون بعثة خاتم الأنبياء ومولده فيهـا ، كيف لا وهو من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

٢ ـ البقعـة الجغرافيـة للجـزيرة العربيـة ترشحهـا للقيـام بعبء مثـل هـذه الدعوة ، بسبب أنهـا تقع ـ كما قلنـا ـ في نقطـة الوسـط بين الأمم المختلفـة التي من حولها .

وهذا مما يجعل إشعاعات الدعوة الإسلامية تنتشر بين جميع الشعوب والـدول المحيطة بها في سهولة ويسر ، وإذا أعدت النظر إلى سير الدعوة الإسلامية في صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين وجدت مصداق ذلك جلياً واضحاً .

٣ ـ اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هي لغة الدعوة الإسلامية ، وأن تكون هي الأداة المباشرة الأولى لترجمة كلام الله عزّ وجلّ وإبلاغه إيانا .

ولعلنا لوأمعنا في خصائص اللغات وقارّنا بينها ، لوجدنا أن اللغة العربية تمتاز بكثير من الخصائص التي يعزّ وجودها في اللغات الأخرى . فأجدر بها أن تكون لغة المسلمين الأولى في مختلف ربوعهم وبلادهم .

محمد ﷺ خاتم النَّبيّين

وعلاقة دعوته بالدّعوات السّماوية السّابقة

محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء ، فلا نبي بعده . وهذا مما أجمع عليه المسلمون وعرف من الدين بالضرورة ، قال عليه الصلاة والسلام : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النّبيين »[٨] .

أما دعوته ﷺ وعلاقتها بدعوات الأنبياء السابقين ، فقائمة على أساس التأكيد والتتميم ، كما يدلّ عليه الحديث المذكور .

وبيان ذلك أن دعوة كل نبي تقوم على أساسين اثنين . الأول العقيدة والثاني التشريع والأخلاق . فأما العقيدة فلم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم النّبيين محمد ﷺ . إنما هي الإيمان بوحدانية الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من الصفات ، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار . فكان كل نبي يدعو قومه إلى الإيمان بهذه الأمور . وكان كل منهم يأتي مصدقاً لدعوة من قبله ومبشراً ببعثة من سيأتي بعده . وهكذا فقد تلاحقت بعثتهم إلى مختلف الأقوام والأمم ليؤكّد الجميع حقيقة واحدة أُمروا بتبليغها وحمل الناس على الإذعان

---

(٨) حديث متفق عليه واللفظ لمسلم .

لها ، ألا وهي الدينونة لله عزّ وجلّ وحـده ، وهـذا مـا بيَّنـه الله تعـالى بقولـه في كتابه الكريم :

﴿ شَرَعَ لكم من الدِّينِ ما وصَّى بهِ نوحاً والذي أوحينا إليكَ ، وما وصَّينا بـهِ إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرَّقوا فيهِ ﴾ [الشورى ١٣/٤٢] .

بل إنه لا يتصور أن تختلف دعوات الأنبياء الصادقين في شأن العقيـدة ، لأن أمور العقيدة من نوع الإخبار ، والإخبار عن شيء لا يمكن أن يختلف مـا بين مخبر وآخر إذا فرضنا الصدق في خبر كل منهما ، فمن غير المعقول أن يُبعث أحد الأنبياء ليبلّغ الناس أن الله ثالث ثلاثـة ، سبحـانـه عمـا يقولون ، ثم يُبعث من بعـده نبي آخر ليبلّغهم بـأن الله واحـد لا شريـك لـه ويكـون كل منهما صـادقـاً فيما بلَّـغ عن الله تعالى .

هـذا عن العقيـدة ، أمـا التشريع وهو سنّ الأحكام التي يتوخى منهـا تنظيم حيـاة المجتمـع والفرد ، فقـد كان يختلف في الكيف والكم مـا بين بعثـة نبي وآخر صلوات الله وسلامـه عليهم أجمعين ، وسبب ذلـك أن التشريـع من نـوع الإنشـاء لا الإخبـار ، فلا يَرد فيـه مـا أوردنـاه على اختلاف العقيـدة . ثم من المفروض أن يكون للتطور الزمني ولاختلاف الأمم والأقوام أثر في تطور التشريع واختلافـه ، بسبب أن أصل فكرة التشريع قائم على أساس ما تقتضيه مصالح العبـاد في دنيـاهم وآخرتهم ، هذا إلى أن بعثة كل من الأنبياء السابقين كانت خاصة بـأمـة معينـة ولم تكن عامة للناس كلهم ، فكانت الأحكام التشريعية محصورة في إطار ضيق حسبما تقتضيه حال تلك الأمة بخصوصها .

فقـد بعث مـوسى عليـه السـلام مثـلاً إلى بني إسرائيـل وكان الشـأن يقضي ـ بالنسبة لحال بني إسرائيل إذ ذاك ـ أن تكون شريعتهم شديدة قـائمـة في مجموعهـا على أسـاس العـزائم لا الرُّخص . ولمـا مرت الأزمنـة وبعث فيهم سيـدنـا عيسى

نسبه ﷺ وولادته ورضاعته

أما نسبه ﷺ ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ويدعى شيبة الحمد ، ابن هاشم بن عبد مناف واسمه المغيرة ، ابن قصيّ ويسمى زيداً ، ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

فهذا القدر المتفق عليه من نسبه الشريف ﷺ ، أما مافوق ذلك فمختلف فيه ، لا يُعتمد عليه في شيء . غير أن مما لا خلاف فيه أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله ابن إبراهيم خليل الله عليهما الصلاة والسلام ، وأن الله عز وجل قد اختاره من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب ، فما تسلل شيء من أدران الجاهلية إلى شيء من نسبه .

روى مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى هاشماً من قريش واصطفاني من بني هاشم » .

وأما ولادته ﷺ فقد كانت في عام الفيل ، أي العام الذي حاول فيه أبرهة الأشرم غزو مكة وهدم الكعبة فرده الله عن ذلك بالآية الباهرة التي

وصفهـا القرآن . وكانت على الأرجح يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلـة خلت من شهر ربيع الأول .

وقد ولـد يتيمـاً ، فقـد مـات أبوه عبـد الله وأمـه حـامل بـه لشهرين فحسب فَعُني بـه جـده عبـد المطلب واسترضـع لـه ـ على عـادة العرب إذ ذاك ـ امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب .

وقـد أجمـع رواة السيرة أن بـاديـة بني سعـد كانت تعـاني إذ ذاك سنـة مجدبة قد جفَّ فيها الضرع ويبس الزرع ، فمـا هو إلا أن صـار محمـد ﷺ في منزل حليمة واستكان إلى حجرها وثديها حتى عـادت منـازل حليمـة من حول خبائها ممرعة مخضرّة فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلى الدار شباعاً ممتلئة الضرع .

وقـد حصلت أثنـاء وجـوده ﷺ في بـاديـة بني سعـد (حـادثـة شـق الصدر) التي رواها مسلم[1] ، ثم أعيد بعدهـا إلى أمـه وقـد تمَّ لـه من العمر خمس سنوات .

ولما أصبح له من العمر ست سنوات مـاتت أمّـه آمنـة ، ومـا أن تحول الرسول إلى كفالة جده عبد المطلب حتى وافته هو الآخر منيته فمات وقـد تمَّ للنبي ﷺ ثماني سنوات ، فكفله عمه أبو طالب .

---

(١) راجع قصة استرضـاعـه في بـاديـة بني سعـد وخبر شق صـدره في سيرة ابن هشـام : ٦٤/١ وانظر صحيح مسلم : ١٠١/١ و ١٠٢

العبر والعظات :

يؤخذ من هذا المقطع من سيرته ﷺ مبادئ وعظات هامة نجملها فيما يلي :

١ ـ فيما أوضحناه من نسبه الشريف ﷺ ، دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب على سائر الناس ، وفضل قريشاً على سائر القبائل الأخرى . تجد هذه الدلالة واضحة في الحديث الذي رويناه عن مسلم ، وقد وردت بمعناه أحاديث كثيرة أخرى . فمن ذلك ماروواه الترمذي أنه ﷺ قام على المنبر فقال : « من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول الله عليك السلام ، فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً »[٢] .

واعلم أن مقتضى محبة رسول الله ﷺ ، محبة القوم الذين ظهر فيهم والقبيلة التي ولد فيها ، لا من حيث الأفراد والجنس بل من حيث الحقيقة المجردة . ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية ، قد شرف كل منها ـ ولا ريب ـ بانتساب رسول الله ﷺ إليها .

ولا ينافي ذلك ماقد يلحق من سوء بكل من قد انحرف من العرب أو القرشيين ، عن صراط الله عز وجل ، وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية التي اختارها الله لعباده ، لأن هذا الانحراف أو الانحطاط من شأنه أن يودي بما كان من نسبة بينه وبين الرسول ﷺ ويلغيها من الاعتبار .

٢ ـ ليس من قبيل المصادفة أن يولد رسول الله ﷺ يتيماً ، ثم لا يلبث أن يفقد جده أيضاً ، فينشأ النشأة الأولى من حياته بعيداً عن تربية الأب ورعايته محروماً من عاطفة الأم وحنوها .

لقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة ، لعلَّ من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب أو إيهام الناس بأن محمداً ﷺ إنما رضع لبان

---

(٢) الترمذي : ٢٣٦/٩ كتاب المناقب .

دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه ، بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ، ولمَ لا ؟ وإن جده عبد المطلب كان صدراً في قومه ، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية[٣] .

ومن الطبيعي أن يربي الجد حفيده أو الأب ابنه على مايحفظ لديه هذا الميراث .

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن لا يكون للمبطلين من سبيل إلى مثل هذه الريبة ، فنشّأ رسوله بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجدّه ، وحتى فترة طفولته الأولى ، فقد شاء الله عز وجل أن يقضيها في بادية بني سعد بعيداً عن أسرته كلها ، ولما توفي جدّه وانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب الذي امتدت حياته إلى ماقبل الهجرة بثلاث سنوات ، كان من تتمة هذه الدلالة أن لا يسلم عمه ، حتى لا يُتوهم أن لعمه مدخلاً في دعوته ، وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب .

وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً ، تتولاه عناية الله وحدها بعيداً عن الذراع التي تمعن في تدليله والمال الذي يزيد في تنعيمه ، حتى لاتميل به نفسه إلى مجد المال والجاه ، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة ، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا ، وحتى لايحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني .

٣ ـ يدل ماتفق عليه رواة السيرة النبوية من أن منازل حليمة السعدية عادت ممرعة مخضرّة بعد أن كانت مجدبة قاحلة ، وعاد الدرّ حافلاً في ضرع ناقتها الكبيرة المسنة بعد أن كان يابساً لا يتندى بقطرة لبن ، يدل ذلك على علوّ شأن رسول الله ﷺ ورفعة مرتبته عند ربّه حتى عندما كان طفلاً صغيراً كغيره من الأطفال . فقد كان من أبرز مظاهر إكرام الله له أن أكرم بسببه بيت حليمة السعدية التي تشرفت بإرضاعه . وليس في ذلك من غرابة ولا عجب ، فقد علمتنا شريعتنا الإسلامية أن نستسقي عند انحباس المطر ببركة الصالحين من الناس ومن أهل بيت محمد ﷺ رجاء استجابة الله لدعائنا[٤] ، فكيف إذا تشرف المكان

(٣) الرفادة شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية ، أي تتعاون به فيخرج كل إنسان بقدر طاقته فيجمعون مالاً عظيماً فيشترون به طعاماً وزبيباً ونبيذاً ويطعمون الناس ويسقونهم أيام موسم الحج حتى ينقضي .

(٤) يستحب الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة سواء في الاستسقاء وغيره : أجمع على ذلك جمهور الأئمة والفقهاء . انظر فتح الباري : ٣٣٩/٢ ونيل الأوطار : ٧/٢ وسبل السلام : ١٣٤/٢ والمغني لابن قدامة الحنبلي : ٢٦٥/٢

برسول الله ﷺ ، وهو طفل رضيع قد استكان إلى حجر حليمة والتقم ثديها ؟ إن من الجدير أن تكون سببيته لاخضرار الأرض المجدبة من حوله أبلغ من سببية قطر السماء وينابيع الأرض . وما دام الكل بيد الله وهو وحده مسبب الأسباب جميعها فأجدر برسول الله ﷺ أن يكون في مقدمة أسباب البركة والإكرام الإلهي ذلك أنه رحمة الله إلى الناس بصريح تبيانه سبحانه وتعالى ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمينَ ﴾ [الأنبياء ١٠٧/٢١] .

٤ ـ تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل ، وقد رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة منهم أنس بن مالك فيما يرويه مسلم في صحيحه : « أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ مرضعته ـ ينادون : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون »(٥) .

وليست الحكمة من هذه الحادثة ـ والله أعلم ـ استئصال غدة الشر في جسم رسول الله ﷺ ، إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم أو علقة في بعض أنحائه ، لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية . ولكن يبدو أنّ الحكمة هي إعلان أمر الرسول ﷺ وتهييؤه للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية ، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته . إنها إذن عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم .

وأياً كانت الحكمة ، فلا ينبغي ـ وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً ـ محاولة البحث عن مخارج لنخرج منها بهذا الحديث عن ظاهره وحقيقته إلى التآويل المجوجة البعيدة المتكلفة . ولن تجد من مسوغ لمن يحاول هذا ـ على الرغم من ثبوت الخبر وصحته ـ إلا ضعف الإيمان بالله عز وجل .

---

(٥) مسلم ١٠١/١ و ١٠٢ وثبت في الصحيح تكرار حادثة شق صدره ﷺ أكثر من مرة .

ينبغي أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية وصحتها فإذا ثبتت الرواية ثبوتاً بيّناً فلا مناص من قبوله موضوعاً على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ دلالات اللغة العربية وأحكامها . والأصل في الكلام الحقيقة ، ولو أنه جاز لكل باحث وقارئ أن يصرف الكلام عن حقيقته إلى مختلف الدلالات المجازية ليتخير من بينها ما يروق له ، لانشلّت قيمة اللغة وفقدت دلالتها وتاه الناس في مفاهيمها .

ثم فيم البحث عن التأويل ومحاولة استنكار الحقيقة ؟

أما إن ذلك لا يأتي إلا من ضعف في الإيمان بالله ، ثم من ضعف في اليقين بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته ، وإلا فما أسهل اليقين بكل ما صح نقله سواء عرفت الحكمة والعلة أم لم تعرف .

☆ ☆ ☆

رحلته الأولى إلى الشام ثم كدحه في سبيل الرزق

ولما تمّ له ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة ، سافر عمه أبو طالب إلى الشام في ركب للتجارة ، فأخذه معه . ولما نزل الركب (بصرى) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليماً بالإنجيل خبيراً بشؤون النصرانية وهناك أبصر بحيرا النبيَّ ﷺ ، فجعل يتأمله ويكلمه ، ثم التفت إلى أبي طالب فقال له :

ما هذا الغلام منك ؟

فقال : ابني (وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه) فقال له بحيرا : ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حياً . فقال : هو ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال بحيرا : صدقت . فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه هنا ليَبْلغُنَّه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة[٦] .

(٦) باختصار عن سيرة ابن هشام : ١٨٠/١ ورواه الطبري في تاريخه : ٢٨٧/٢ ورواه البيهقي في سننه وأبو نعيم في الحلية . ويوجد بين هذه الروايات بعض الخلاف في التفصيل ، وانفرد الترمذي بروايته مطولاً على نحو آخر ، ولعل في سنده بعض اللين ، فقد قال هو نفسه بعد أن رواه : (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه) . وفي سنده عبد الرحمن بن غزوان قال عنه في الميزان : له مناكير ، ثم قال : أنكر ماله حديثه عن يونس بن أبي إسحاق ، =

ثم أخذ رسول الله يستقبل فترة الشباب من عمره فبدأ بالسعي للرزق وراح يشتغل برعي الغنم ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه فيما بعد : « كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة »[٧] . وحفظه الله من كل ما قد ينحرف إليه الشبان من مظاهر اللهو والعبث . قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه :

« ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة . قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذني ، فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبي ، فسألني فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء »[٨] .

= في سفر النبي ﷺ وهو مراهق مع أبي طالب إلى الشام . وقال عنه ابن سيد الناس : في متنه نكارة (راجع عيون الأثر : ٤٣/١) . والغريب أن الشيخ ناصر الدين الألباني قال عنه ـ رغم هذا ـ في تخريجه لأحاديث (فقه السير) للغزالي : إسناده صحيح .. ولم ينقل من تعليق الترمذي عليه إلا قوله : هذا حديث حسن .. ومن عادته أن يضعف ما هو أصح من هذا الحديث بكثير .. هذا وأما القدر المشترك من القصة فثابت بطرق كثيرة لا يلحقها وهن .

(٧) رواه البخاري .

(٨) رواه ابن الأثير ورواه الحاكم عن علي بن أبي طالب وقال عنه : صحيح على شرط مسلم . ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر .

العبر والعظات :

يدل حديث بحيرا عن رسول الله ﷺ - وهو حديث رواه عامة علماء السيرة ورواتها وأخرجه الترمذي مطوّلاً من حديث أبي موسى الأشعري - على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، كان عندهم علم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة بعلاماته ، وذلك بواسطة ماجاء في التوراة والإنجيل من خبر بعثته وبيان دلائله وأوصافه . والدلائل على ذلك كثيرة مستفيضة .

فمنها ماارواه علماء السيرة من أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ويقولون : إن نبياً سيبعث قريباً سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، ولما نكثوا عهدهم أنزل الله في ذلك قوله : ﴿ ولَمّا جاءهُمْ كتابٌ من عندِ اللهِ مصدقٌ لما مَعَهُمْ ، وكانوا من قبلُ يستفتحونَ على الذينَ كفروا فلَمّا جاءَهُمْ ماعَرَفوا كَفَروا بهِ فلعنةُ اللهِ على الكافرين ﴾ [البقرة ٨٩/٢] .

وروى القرطبي وغيره أنه لما نزل قول الله تعالى : ﴿ الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعْرِفونَهُ كما يعرفونَ أبناءَهُمْ ، وإنّ فريقاً منهم ليكتمونَ الحقّ وهُمْ يعلمون ﴾ [البقرة ١٤٦/٢] سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام وقد كان كتابياً فأسلم : أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك ؟ فقال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته ، أما ابني فلا أدري ماالذي قد كان من أمّه . ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من الإنجيل والرهبان وعلماء الكتاب .

ولا ينافي هذا أن كثيراً من أهل الكتاب ينكرون هذا العلم ، وأنّ الأناجيل المتداولة خالية عن الإشارة إلى ذكر النبي ﷺ . فمن المعلوم بالبداهة ماتقلّب على هذه الكتب من أيدي التبديل والتغيير المتلاحقة . وصدق الله إذ يقول في محكم تبيانه :

﴿ ومنهم أمّيونَ لا يعلمونَ الكتابَ إلا أمانيَّ وإنْ هُمْ إلا يَظُنّون ، فويلٌ للّذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهِمْ ثم يقولونَ هذا مِنْ عندِ اللهِ ، لِيَشْتَروا بهِ ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كَتَبَتْ أيديهِم وويلٌ لهم مما يكسِبون ﴾ [البقرة ٧٨/٢، ٧٩] .

أما إقباله على رعي الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ففيه ثلاث دلالات هامة :

الأولى : الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمّل الله تعالى بهما نبيه محمداً ﷺ . لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له في الحنوّ والشفقة كالأب الشفوق ، ولكنه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه . وربما كانت الفائدة التي يجنيها من وراء عمله الذي اختاره الله له ، فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبي طالب ، ولكنه على كلّ تعبير أخلاقي رفيع عن الشكر ، وبذل للوسع ، وشهامة في الطبع ، وبرّ في المعاملة .

الثانية : وتتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا . لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهيئ للنبي ﷺ ، وهو في صدر حياته ، من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعياً وراء القوت .

ولكن الحكمة الإلهية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدّ يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه ، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أي تعب في سبيله ، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله .

الثالثة : إن صاحب أي دعوة ، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم . ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه فيعوقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبال بالموقع الذي قد تقع من نفسه .

وهذا المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول ﷺ في هذه الفترة ، إذ إنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الدعوة والرسالة الإلهية ، غير أن هذا المنهج الذي هيأه الله له ينطوي على هذه الحكمة ويوضح أن الله تعالى قد أراد أن لا يكون في شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي ، فيما بعد البعثة .

وفيما قصه النبي ﷺ عن نفسه من خبر حفظ الله إياه من كل سوء منذ صغره وصدر شبابه ، ما يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : أن النبي ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها ، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها . فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة ، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون .

الثانية : أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها ، فهو حتى عندما لا يجد لديه الوحي أو الشريعة التي تعصمه من الاستجابة لكثير من رغائب النفس ، يجد عاصماً آخر خفياً يحول بينه وبين ماقد تتطلع إليه نفسه مما لا يليق بمن هيأته الأقدار لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام .

وفي اجتماع هاتين الحقيقتين لديه ﷺ دليل واضح على أن ثمة عناية إلهية خاصة تسيّره وتأخذ بيده بدون وساطة الأسباب المعروفة كوسائل التربية والتوجيه ، ومن ذا الذي يوجهه في طريق هذه العصمة وكل الذين حوله من أهله وبني قومه وجيرانه ، غرباء عن هذا الطريق ، ضالون عن هذه الوجهة ؟

لا جرم إذن أن هذه العناية الإلهية الخاصة التي جعلت لشباب النبي ﷺ طريقاً دقيقاً من النور يمخر عباب ظلام الجاهلية ، من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التي خلقه الله لها وهيأه لحمل أعبائها ، وعلى أن معنى النبوة هو الأساس في تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية والفكرية والسلوكية في الحياة .

وكان من اليسير أن يولد الحبيب الأعظم ﷺ ، وقد انتزعت من نفسه كل هذه الدوافع الغريزية إلى التمتع بالشهوات والأهواء ، فلا يجد في نفسه ما يدفعه أصلاً إلى ترك أغنامه أمانة عند زميله ليهبط إلى بيوت مكة فيبحث بينها عن قوم يسمرون أو يلهون ويمرحون . غير أن ذلك لا يدل حينذاك على أكثر من شذوذ في تركيبه النفساني ، وهي ظاهرة يوجد لها نماذج في كل قوم وعصر ، وإذن فليس ثمة ما يدل على العناية الخفية التي تصرفه عما لا يليق رغم وجود الدوافع الغريزية نحوه . وإنما اقتضت حكمة الله عز وجل أن يتبدى للناس من هذه العناية الإلهية بالرسول الكريم ما يسهل عليهم أسباب الإيمان برسالته ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب في صدقه .

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خـديجـة ـ كما يروي ابن الأثير وابن هشـام ـ امرأة تـاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجـال في مـالهـا وتضـاربهم إيـاه بشيء تجعلـه لهم منـه ، فلمـا بلغهـا عن رسـول الله صـدق الحـديث وعظم الأمـانـة وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج في مـالهـا إلى الشـام تـاجراً وتعطيـه أفضل ما كانت تعطي غيره ، ومعه غلامها ميسرة . وقـد قبل محمـد عليـه الصلاة والسلام هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة . فحالفه التـوفيـق في هـذه الرحلـة أكثر من غيرهـا ، وعـاد إلى خـديجـة بـأربـاح مضاعفة ، فأدى لها ماعليه في أمانة تامـة ونبل عظيم . ووجـد ميسرة من خصائص النبي ﷺ وعظيم أخلاقه ماملأ قلبه ، دهشةً له ، وإعجـابـاً بـه فروى ذلك لخديجة .

فأعجبت خديجة بعظيم أمانتـه ، ولعلهـا دهشت لمـا نـالهـا من البركـة بسببـه ، فعرضت نفسهـا عليـه زوجـة بواسطـة صـديقتهـا (نفيسـة بنت منيّـة) ، فـوافـق النبي عليـه الصـلاة والسـلام ، وكلم في ذلـك أعمـامـه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد . وتزوجها عليه الصلاة والسلام وقـد تمّ له من العمر خمسة وعشرون عاماً ولها من العمر أربعون .

وقد كانت تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله ﷺ برجلين الأول منهما عتيق بن عائذ التميمي ، ثم خلفه عليها أبو هالة التميمي واسمه هند بن زرارة[٩] .

العبر والعظات :

أما عمله ﷺ في مال خديجة ، فهو استمرار لحياة الكدح التي بدأها برعي الأغنام ، ولقد شرحنا طرفاً مما يتعلق بذلك من الحكمة والعبرة .

وأما فضلها ومنزلتها في حياة النبي ﷺ فلقد ظلت لخديجة مكانة سامية عند رسول الله ﷺ طوال حياته ، وقد ثبت في الصحيحين أنها خير نساء زمانها على الإطلاق .

روى البخاري ومسلم أن علياً رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد »[١٠] .

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ماغرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة ، وإني لم أدركها ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت : فأغضبته يوماً فقلت : خديجة ! فقال رسول الله ﷺ : إني قد رزقت حبّها »[١١] .

وروى أحمد والطبراني من طريق مسروق عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ،

---

(٩) رواه ابن سيد الناس في (عيون الأثر) وابن حجر في الإصابة ، وغيرهما . وقد جرى خلاف في الأول منهما . والذي رجحه ابن سيد الناس ورواه قتادة وابن إسحاق أن الأول منهما هو عتيق بن عائذ والثاني هند بن زرارة .

(١٠) الضمير في نسائها عائد ـ كما تدل رواية مسلم ـ إلى السماء بالنسبة لمريم وإلى الأرض بالنسبة لخديجة . وقال الطيبي : الضمير الأول راجع إلى الأمة التي كانت فيها مريم ، والثاني إلى هذه الأمة . وانظر فتح الباري : ٩١/٧

(١١) متفق عليه واللفظ لمسلم .

فأخذتني العبرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب ثم قال : « لا والله ماأبدلني الله خيراً منها : آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وأما قصة زواجه ﷺ منها ، فإن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سناً أو بمن ليست أكبر منه على أقل تقدير . ويتجلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً ، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر ، دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أو فتاة أخرى ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء ، دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس ، هذا على الرغم من أنه تزوج خديجة وهي أيم ، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه ، من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاءً ونداءً ، كما قال الله عز وجل .

فقد ظنوا أنهم واجدون في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن يشوّه من سمعة محمد ﷺ ، وتخيلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوان الغارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

ومعلوم أن المبشرين ومعظم المستشرقين ، هم الخصوم المحترفون للإسلام ، يتخذون

القدح في هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم . أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم ، فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث ولا فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للإسلام ليس إلا من نوع الشارة التي قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة ، ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز ، فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذي يعلنون به عن هويتهم بين الناس : أنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامي في شيء ، وأن ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الاستعماري الذي يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكري من مبشرين ومستشرقين . فهذا هو اختيارهم ، من قبْلِ أي بحث ودون محاولة أي فهم ! .. أجل ، فإن مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يَسِمونَ بها أنفسهم بين قومهم وبني جلدتهم ، وليس عملاً فكرياً لقصد البحث أو الحجاج .

وإلاّ ، فموضوع زواج النبي ﷺ من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر ، العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه ، على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد ! .. وموضوع زواجه عليه الصلاة والسلام هو وحده الدليل الكافي على عكس ذلك تماماً . فالرجل الشهوان ، لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر في بيئة مثل بيئة العرب في جاهليتها ، عفيف النفس ، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج من حوله . والرجل الشهوان ، لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب ضعف عمره ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل في مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ثم من غيرها ، فإن لكل منهن قصة ، ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه . وأياً كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة للرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية في الوقت الطبيعي لهذه الرغبة وندائها .. خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالي الفكر ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجاته الفطرية والطبيعية .

ولسنا نرى الإطناب في الدفاع عن زواجه عليه الصلاة والسلام ، على نحو ما يفعل كثير من الباحثين ، إذ لا نعتقد أن ثمة مشكلة تحتاج إلى النظر أو البحث ، وإن أوهم خصوم الإسلام ذلك .

ورب حق من حقائق الإسلام ، لا يطمع خصومه لإبطاله ، بأكثر من استجرار المسلمين إلى مناقشة دفاعية في شأنه .